الياس خوري

# مدخل إلى قراءة الهولوكوست والنكبة*

**يعالج** هذا الكتاب التقاطعات المعقدة والمتعددة المستويات للهولوكوست والنكبة، وهي مسألة احتلت موقعاً خاصاً في بعض أعمالي الأدبية والفكرية.

فخلال عملي على كتابة الجزء الثاني من رواية "أولاد الغيتو"، اصطدمت بعبارة إسرائيلية تعبّر عن جوهر الالتباس الذي صنعته الصهيونية في مشروعها الكولونيالي في فلسطين. فلاصقات "الإرهابي" أو "المخرّب"، التي أُطلقت بصورة عامة على الفلسطينيين، لا تثير العجب. فهذه اللاصقات مستلّة من القاموس الكولونيالي التقليدي، وهي صفات حمّالة أوجه، لأن إرهابي الأمس قد يصير رئيساً للحكومة كحال مناحم بيغن أو يتسحاق شامير في إسرائيل، أو قد ينال جائزة نوبل للسلام كحال الشهيد ياسر عرفات الذي كثيراً ما اتهمه الاحتلال الإسرائيلي بالإرهاب، قبل أن تجري إعادته إلى المربع الإرهابي خلال الانتفاضة الفلسطينية الثانية، وحصاره حتى الموت في مقرّه في المقاطعة.

العبارة التي صدمتني هي "صابونيم"، وهي عبارة شاعت بُعيد تأسيس الدولة العبرية، وكان يُقصد بها الناجون من المحرقة النازية، الذين هاجروا إلى "أرض الميعاد". والعبارة تحمل معنى اصطلاحياً إذ تدل على الجبناء، لكنها تحمل أيضاً معنى حرفياً يعيدها إلى كلمة صابون التي نجدها في العبرية والعربية. وهي تدل على واحدة من الظواهر الوحشية التي ترافقت مع المحرقة النازية عبر تحويل الضحايا اليهود إلى صابون! (وهي ظاهرة غير صحيحة تبنّاها كثيرون في ذلك الزمن).

"الصابونيم"، هي الوجه الآخر لكلمة "مسلم مانيرز"، التي كانت تُطلق على اليهود الضعفاء في معسكرات الإبادة النازية، تمهيداً

* ننشر فيما يلي المدخل الذي كتبه الياس خوري لكتاب:

*The Holocaust and the Nakba*, edited by Bashir Bashir and Amos Goldberg (New York: Columbia University Press, 2018).

وكتب بشير وغولدبرغ مقدمة الكتاب، وشارك فيه كل من: مارك ليفين؛ جيل أنيدجار؛ أمنون راز-كراكوتسكين؛ هنيدة غانم؛ نديم خوري؛ ألون كونفينو؛ مصطفى كبها؛ يوخي فيشر؛ عومر بارتوف؛ طال بن تسفي؛ عُومري بن يهودا؛ حنان حيفر؛ رفقة أبو رميلة؛ رائف زريق؛ يهودا شنهاف. وكتبت خاتمته جاكلين روز.

STUDENTS-HUB.com

لسوقهم إلى الموت! وقد حلل جيل أنيدجار ظاهرة "المسلم مانيرز" بشكل لامع في أحد فصول هذا الكتاب.

أريد أن أبدأ من هاتين العبارتين، فقد واجهت التباسات الصابون للمرة الأولى خلال مشاهدتي لتجهيز في معهد العالم العربي في باريس، أعدّته الفنانة الفلسطينية منى حاطوم في سنة ١٩٩٦. يومها عرضت هذه الفنانة تجهيزها وهو على شكل خريطة محفورة على قطع من صابون نابلس (تُشتهر نابلس بصابونها وكنافتها) رُسمت عليها خطوط الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين. أصابتني رائحة الصابون النابلسي التي انتشرت في ردهات معهد العالم العربي بالدوار، ويومها كان تأويلي لهذا التجهيز الفني هو أن الفنانة الفلسطينية وضعت رائحة عطر الصابون المصنوع من زيت الزيتون كنقيض للاحتلال، ذلك بأن رائحة الأرض قادرة في النهاية على التفوق على عنف الحدود والاستيطان، لكنني فوجئت بردات فعل إسرائيلية أشارت إلى موقف عنصري في هذا التجهين، لأن التذكير بالصابون يحيل إلى الجريمة النازية!

قراءتي لهذا التأويل الصهيوني جعلتني في حيرة من أمري، إذ كيف نجد لغة تأويل مشتركة بين الضحية والمستعمِر؟ وهل هناك إمكان لإيجاد مثل هذه اللغة؟ فإذا كان محرّماً على الفنانة الفلسطينية استخدام صابون نابلس خوفاً من تأويل صهيوني يدمر المعنى الإنساني لتجهيزها، فكيف على الفلسطينيين التعبير عن مأساتهم، أم إن على مأساتهم أن تختفي، لأن هناك حكاية أكبر صُنعت في أفران العنصرية الأوروبية، ولذا على الضحية أن تخرس وتقبل بفنائها المتدرج على يد مَن يدّعي أنه وريث ضحايا الهولوكوست؟

وفي هذه الحالة ما هي دلالة كلمة صابونيم التي شاعت في إسرائيل؟ وكيف يمكن الوصول إلى فهم لمعانيها المتعددة؟

أمّا التباسات "المسلم" فهي اليوم في كل مكان من العالم، وسط صعود الفاشية والعنصرية، وهي تُستخدم لوصف أي مسلم أو عربي بصفته إرهابياً محتملاً، ولذا على العالمَين العربي والإسلامي دفع ضريبة الإذلال والموت.

لكن في معسكرات الاعتقال النازية كان معنى الكلمة مختلفاً، فعلى حافة الموت، يلتبس معنى الكلمات، بل قد تفقد الكلمات أي معنى، لأن بُكم الضحية يصير اللغة الوحيدة أمام هول الإبادة.

لا أريد تحليل تاريخ هاتين الكلمتين، فأنا أشرت إليهما كي أقول إن سوء الفهم هو سيد اللغة. والواقع أن افتراض كون اللغة وسيلة تواصل ليس أكثر من افتراض يتعلق بإحدى وظائف اللغة، فاللغة أيضاً تخلق في داخلها مراتب للمعاني، فيصير مُضمرها أكثر أهمية من مظهرها، في أغلب الأحيان. وربما كان هذا هو سبب إرجاع اللغويين العرب مصدر فعل الكلام (كَلَمَ)، إلى الجرح. فالكلمة جرح في الروح، وعلينا أن نستدل على معانيها من ارتباط جروحها بالألم الإنساني.

أمّا كلمتا محرقة ونكبة، مثلما نراهما في فصول هذا الكتاب، فمحاطتان بالتباسات لا حصر لها.

صحيح أن كلمة محرقة أو هولوكوست التي تُستخدم لوصف الكارثة اليهودية التي صنعتها معسكرات الاعتقال النازية خلال الحرب العالمية الثانية، صارت اليوم تعبيراً

STUDENTS-HUB.com

معترفاً به في الأوساط الأكاديمية والثقافية بصورة عامة، غير أننا لا نزال نعثر على أصوات تنكر حصول المحرقة أو تشكك في أرقامها. وعلى الرغم من هامشية هذه الأصوات، فإنها تشكل مصدر قلق لأنها، مع صعود اليمين الفاشي في أوروبا والولايات المتحدة، تختزن بذور عودة اللاسامية بأشكال جديدة قد تكون الإسلاموفوبيا إحدى مقدماتها.

وفي المقابل، فإن كلمة نكبة، التي تُستخدم لوصف الكارثة الفلسطينية، عانت التباسات كثيرة. فالكلمة التي صكّها المؤرخ الدمشقي قسطنطين زريق في سنة ١٩٤٨، دخلت بصعوبة في القاموس العربي، وهي اليوم بدأت تحتل موقعها في العالم ككلمة عصية على الترجمة، تختص بوصف المأساة الفلسطينية. ومع ذلك، فإن القانون الإسرائيلي يمنع الضحايا الفلسطينيين المقيمين في إسرائيل، أي في وطنهم التاريخي، من الاحتفال بذكرى النكبة!

المحرقة هي خلاصة الفكر العنصري الأوروبي بجذوره الفكرية والسياسية والدينية المتنوعة، وربما علينا أن نبحث عن جذور اللاسامية في الحروب الصليبية، أو في زمن محاكم التفتيش بعد إعادة احتلال الأندلس. وقد وصلت اللاسامية إلى ذروتها مع "الحل النهائي" الذي نجحت النازية في تطبيقه في أوروبا بشكل وحشي.

أمّا النكبة الفلسطينية فترتبط بظاهرة تاريخية أُخرى هي ظاهرة التوسع الكولونيالي الأوروبي، فالمهمة التمدينية الأوروبية أنتجت ظاهرة الاستعمار الاستيطاني الذي قدم نماذجه في أكثر من مكان، وخصوصاً في أفريقيا، من الجزائر إلى روديسيا إلى جنوب أفريقيا، وكان المشروع الصهيوني، بحسب دعاته الأوائل، جزءاً من هذه الظاهرة.

ومثلما أوضحَت هنيدة غانم بشكل لافت في الفصل الذي كتبَته في هذا الكتاب، فإن الصهيونية نجحت في دمج مسألتين مختلفتين، المحرقة والمشروع الصهيوني، إذ جرى تصوير تأسيس الدولة الإسرائيلية على أرض فلسطين، بعد طرد سكانها منها، كأنها الجواب المنطقي على المحرقة.

صحيح أن أصحاب المشروع القومي اليهودي انطلقوا من الواقع اللاسامي الذي صنع بوغرومات (pogroms) القرن التاسع عشر في أوروبا الشرقية، إلاّ إن جوابهم على اللاسامية، لم يكن الخيار اليهودي الوحيد أو الحتمي. فالخيارات اليهودية تراوحت بين خيار اندماجي قومي ثقافي مثّله حزب البوند، وخيار رافض لفكرة الدولة مثّلته التيارات اليهودية الأرثوذكسية لأنه يتناقض مع المعتقد الديني اليهودي، وتيارات الاندماج الكامل التي مثّلتها الليبرالية والماركسية... غلبة الخيار الصهيوني جاءت متأخرة وتطابقت مع الاحتلال البريطاني لفلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، وتعمّمت بعد الحرب العالمية الثانية. لكن هذا الخيار بقي مخلصاً لجذره الكولونيالي، فهو مشروع كولونيالي من جهة، ومشروع قومي من جهة ثانية، وهنا يكمن تناقضه الداخلي الذي لا حل له..

أغلب الظن أن دمج المحرقة في المشروع الصهيوني هو الأسطورة الكبرى التي بنت عليها إسرائيل شرعيتها، وصارت اليوم السلاح الأساسي لمنع توجيه النقد إليها. فنقد ممارسات الاحتلال الإسرائيلي والمستعمرات

STUDENTS-HUB.com

اللاشرعية في الضفة الغربية، ونقد حصار غزة التي حوّلها الإسرائيليون إلى أكبر غيتو في العالم، ونقد التطهير العرقي في القدس، يصير عبر كيمياء الالتباس اللغوي لاسامية جديدة!.

لم يستخدم الفلسطينيون كلمة هولوكوست لوصف كارثتهم، وإنما صاغوا كلمة أُخرى، الأمر الذي يحمل دلالة إضافية، إذا كان لا بدّ من ذلك، على عدم صحة المقارنة بين حدثين تاريخيين مختلفين في الظروف والدلالات. وعلى الرغم من بعض المظاهر التي تشير إلى أن الإسرائيليين يقلدون بعض الممارسات النازية، فإن السقوط في فخ المقارنة يقود إلى حجب الحاضر، وهو ما وقع فيه كثير من الإسرائيليين واليهود والفلسطينيين والعرب، وهي مقارنة لا تقل خطأ عن خطأ بعض القيادات الفلسطينية في أربعينيات القرن الماضي التي اعتبرت أن عدو عدوها صديقها، فارتكبت حماقة التعاون مع النازيين.

إن رفض السقوط في فخ المقارنة ليس ناجماً عن الحجم فقط، أو عن تفوّق آلة الرعب النازية المطلق على آلات "تفاهة الشر" كلها التي أنتجتها البربرية، بل أيضاً عن الاختلاف الجوهري بين الحدثين. الهولوكوست حدث يعكس احتمالات العنصرية، وهو بالتالي حدث إنساني كبير يجب أن يكون مدرسة للبشرية في ضرورة مقاومة الوحش العنصري ورفض مقولاته في كل مكان. أمّا النكبة فهي آخر تمظهرات التوسع الكولونيالي الاستيطاني التي أنتجت نظام الأبارتهايد الذي شكل النضال ضده قاسماً مشتركاً وحّد البشرية من أجل إسقاطه، وكانت معركة المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا إحدى علامات هذا النضال المضيئة.

الهولوكوست والنكبة يشتركان في كونهما حدثَين عالميين يمسّان البشرية كلها على مستوى نضالها ضد العنصرية، ومن هنا فإن النضال من أجل أن تكون ذاكرة المحرقة ذاكرة إنسانية مشتركة، لا يكتمل إلاّ بمقاومة الاستعمار الكولونيالي الذي تشكل الصهيونية موقعه الأخير في عالم اليوم.

هل نحن أمام ذاكرتين نبحث عن تناغم بينهما؟

هناك شرك يسقط فيه كثيرون، بصرف النظر عن النيات، وهو التعامل مع النكبة بصفتها ذاكرة.

المحرقة صارت ذاكرة إنسانية شاملة من الضروري العمل على صيانتها وتعلّم الدروس منها. إنها فعل همجي كارثي حدث في الماضي، وهي بهذا المعنى تدخل في تاريخنا، وتصير نصوصها جزءاً لا يتجزأ من وعينا الإنساني الذي يجب حمايته من ناكري المحرقة، أو ممّن يقللون من كارثيتها، أو ممّن يستخدمونها ذريعة لتبرير أي شكل من أشكال القمع أو التطهير العرقي أو العنصرية.

أمّا النكبة فمسألة مختلفة بشكل جذري. لقد بدت النكبة الفلسطينية التي حدث فصلها الدموي الكبير خلال التطهير العرقي لفلسطين في سنة ١٩٤٨، كأنها ذاكرة، خلال مرحلة أوهام اتفاق أوسلو للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين في سنة ١٩٩٣. يومها بدا أن صفحة النكبة طُويت بتنازلات مشتركة قدمها الطرفان (أُنظر الفصل الذي كتبه نديم خوري)، لكن ثبت أن اتفاق أوسلو كان وهماً، لأنه قُرئ بطريقتين مختلفتين: الفلسطينيون قرأوه بصفته يضع نقطة النهاية على احتلال الضفة الغربية والقدس وغزة، ويسمح لهم بتأسيس دولتهم على مساحة ٢٠٪ من وطنهم

STUDENTS-HUB.com

التاريخي، بينما قرأته المؤسسة الإسرائيلية بصفته تسوية تسمح لها باستمرار بناء المستعمرات وسياسات الضم الزاحف، في مقابل إعطائها الرعايا الفلسطينيين حق الإقامة والإدارة الذاتية لشؤون باندوستاناتهم.

وهذا يُثبت خطأ بعض المؤرخين العرب الذين اعتبروا النكبة حدثاً تاريخياً جرى في الماضي.

إن وقائع الحياة اليومية في فلسطين تشير إلى أن حرب ١٩٤٨ لم تشهد سوى بدايات الحدث النكبوي الذي لم ينتهِ لحظة توقيع اتفاقيات الهدنة بين سنتَي ١٩٤٩ و١٩٥٠. فحرب ١٩٤٨ كانت البداية المستمرة حتى هذه اللحظة. والنقاش الذي تركز حول وجود خطة للطرد، وهو ما أثبته وليد الخالدي حين كشف عن وجود الخطة دالت، وأكده إيلان بابِهْ في كتابه "التطهير العرقي في فلسطين"، أو عن وجود ممارسة فعلية للطرد، مثلما برهن ذلك بني موريس، يجب أن يذهب الآن إلى أماكن جديدة. إن طرد الفلسطينيين وهربهم خلال حرب ١٩٤٨ من قراهم ومدنهم التي كانت تتعرض للقصف مهما تكن أسبابهما، لا يسوّغان لإسرائيل منعهم من العودة ومصادرة بيوتهم وأراضيهم بحجة أنها أملاك غائبين. إن قانون أملاك الغائبين الذي وصل إلى ذروته مع مقولة الغائبين الحاضرين هو أكثر فداحة من الطرد، لأنه حوّل الطرد من حدث إلى حالة دائمة. يكفي أن ندرس وقائع ما يسمى القرى المهجرة داخل إسرائيل، ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر قرية صفورية التي روى شاعرها الكبير طه محمد علي مأساتها، لنرى كيف أن نكبة الصفافرة لا تزال مستمرة إلى اليوم.

فأهل صفورية الذين بقوا في وطنهم التاريخي ولجأوا إلى مدينة الناصرة القريبة من بلدتهم، ممنوعون من زيارة أراضيهم وبيوتهم المدمرة. فأراضي القرية صودرت، وأهالي صفورية حاضرون كمواطنين إسرائيليين، لكنهم غائبون كأصحاب حقوق؟

إن مصادرة الأراضي في الدولة الإسرائيلية لم تتوقف، وحتى القرويون الذين بقوا في قراهم ولم يتحولوا إلى حاضرين غائبين، فإن إسرائيل نجحت في مصادرة أراضيهم الزراعية من أجل هدفها المعلن، وهو تهويد الأرض.

وحتى بالنسبة إلى الفلسطينيين الإسرائيليين الذين حُرموا من اسمهم القومي، وصاروا يسمّون عرب أرض إسرائيل، فإن النكبة لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا. ولعل تدمير قرية العراقيب في النقب أكثر من مئة مرة خلال ستة أعوام، يقدم مؤشراً واضحاً إلى واقع الحال.

إذا كانت النكبة المستمرة داخل إسرائيل تتغطى بالقوانين والتشريعات التي يقرّها البرلمان الإسرائيلي، فإن النكبة تبدو عارية في القدس والضفة الغربية وغزة.

فالأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٦٧ تخضع للقانون العسكري، والاستيطان يعربد في جميع أنحائها، من القدس التي تختنق بالمستعمرات، إلى أراضي الضفة الغربية، وصولاً إلى غور الأردن، كما أن القمع والتوقيف الإداري والقتل صارت ممارسات يومية ممأسسة. لقد بنت إسرائيل نظاماً متكاملاً من الأبارتهايد قوامه الطرق الالتفافية الخاصة بالمستوطنين اليهود، وجدار الفصل الذي يمزق أراضي الفلسطينيين ويصادرها، والحواجز التي جعلت الانتقال

STUDENTS-HUB.com

من باندوستان فلسطيني إلى آخر عملية تعذيب يومية.

شراهة هذه النكبة المستمرة تتجلى في شكل واضح في مدينتَي القدس والخليل حيث يتغلغل المستوطنون بين السكان الفلسطينيين مقفلين الطرقات، ومحولين الحياة إلى كابوس يومي. وهي تصل إلى ذروتها عبر تحويل قطاع غزة إلى أكبر سجن في الهواء الطلق في العالم.

في محاولتي التمييز بين الذاكرة والحاضر، استفضت قليلاً من أجل تأكيد افتراضي أن النكبة لم تحدث منذ سبعين عاماً، وإنما هي مسار مؤلم بدأ في سنة ١٩٤٨ ولا يزال مستمراً إلى اليوم. فالذاكرة يمكن علاجها عبر التشديد عليها وتأكيد شعور المذنب بذنبه تمهيداً لتحويلها إلى ذاكرة إنسانية عامة، أمّا الحاضر فيحتاج إلى العمل من أجل تغييره، وإلى أدوات سياسية وفكرية ونضالية تجمع جميع المناهضين للاستعمار الاستيطاني بصرف النظر عن قومياتهم وانتماءاتهم الإثنية والدينية.

ومن هنا خطأ مقولة الاعتراف المتبادل بالمحرقة والنكبة. فأنا كإنسان أولاً، وكعربي ثانياً، وكفلسطيني بالانتماء ثالثاً، لا أضع أي شرط مسبق لاعترافي بهول المحرقة، وعملي على إبقاء ذاكرتها حية. فالمحرقة النازية هي مسؤوليتي كإنسان، مع أنها صناعة أوروبية فاشية خالصة. فأنا كإنسان، وعلى خطى أساتذتي من المثقفين اللبنانيين والعرب الذين أسسوا في بيروت في سنة ١٩٣٩ عصبة مكافحة الفاشية والنازية، ودخلوا إلى السجون في زمن حكومة فيشي الانتدابية، أعتبر أن واجبي الإنساني يحتّم عليّ النضال ضد اللاسامية وجميع أشكال العنصرية، وهذا جزء من نضالي ضد المشروع الكولونيالي الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

المسألة بالنسبة إليّ هي مسألة مبدئية لا تحتمل التفاوض، وهذا ينطبق على النكبة الفلسطينية المستمرة. فالجريمة لا تداوى بجريمة، والعنصرية لا تواجَه بعنصرية مضادة. إن ما يتعرض له الفلسطينيات والفلسطينيون من نكبة مستمرة حريٌّ بإيقاظ الضمائر في العالم كله، من أجل وقف آخر ظاهرة استعمار استيطاني مستمرة في العالم.

تبدو فكرة الاعتراف المتبادل بالمحرقة والنكبة أشبه بكارثة أخلاقية. فالأخلاق لا علاقة لها بالمساومة، ولعبة المرايا هنا ساذجة. لا وجود لطرفين في هذه اللعبة يتبادلان التعاطف، أمّا فكرة التسامح (empathy) فلا معنى لها، هناك جلاد وضحية، ولا مكان للتوفيق بينهما.

الجلاد النازي في المحرقة هو نتاج العنصرية التي يجب النضال ضدها بشكل دائم، وعدم القبول بتجلياتها المتنوعة مهما تتخذ من أسماء.

أمّا النكبة الفلسطينية المستمرة فنتاج الاستعمار الاستيطاني الذي يختزن العنصرية، ويسعى لتطهير البلد من سكانه الأصليين مستلهماً قاموساً متعدد المصادر، من المهمة التمدينية، إلى التبشير الديني، إلى فكرة الأرض الموعودة.

وفي الحالتين، وهما حالتان منفصلتان، لا مكان للمساومة. العنصرية يجب أن تقاوَم حتى النهاية، والاستعمار الاستيطاني يجب أن يتم تفكيكه، وهذا لا علاقة له بمصير المهاجرين الذين يقيمون في البلد، لأن الجريمة لا تداوى بجريمة.

STUDENTS-HUB.com

المحرقة والنكبة ليستا مرآتين متوازيتين، واليهودي والفلسطيني يستطيعان، اذا تخلصا من أوهام الفكر القومي الاستئصالي، أن يكونا مرآتين للألم الإنساني. فاليهودي المضطهد في أوروبا النازية ليس مرآة الفلسطيني فقط، بل هو مرآة الإنسان في كل مكان أيضاً، كما أن الفلسطيني المنفيّ في وطنه وخارجه ليس فقط مرآة اليهودي، بل هو أيضاً مرآة جميع المنفيين والمضطهدين، هو مرآة زمن المنافي الوحشية الذي افتتحته الألفية الثالثة باستغاثات اللاجئين السوريين والعراقيين والليبيين والصوماليين والأفغان، وبمعاناتهم في بحر الموت الذي كان اسمه البحر الأبيض المتوسط.

هكذا يصير الصابونيم و"المسلم مانيرز" مرايا مأساة إنسانية مشتركة.

في هذا السياق نقرأ مقولة إدوارد سعيد عن الفلسطيني بصفته ضحية الضحية، ونستعيد تفاؤل الإرادة وسط تشاؤم العقل، ونعيد اكتشاف القيم الإنسانية التي تهددها الرأسمالية والبربرية والعنصرية والاستبداد والأصوليات بالاندثار.

وأعتقد أن هذا هو التحدي الذي يثيره العديد من فصول هذا الكتاب. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

**جمعية العمال العربية الفلسطينية بحيفا**

**أحمد اليماني (أبو ماهر)**

**تقديم: ماهر الشريف**

٢٠٤ صفحات ٨ دولارات

STUDENTS-HUB.com